الشعر والعصبية القبلية

(دراسة في نماذج من الشعر الجاهلي)

د. عطية فاطمة الزهراء
معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي سي الحواس- بريكة -

الملخص:

إن القبيلة في العصر الجاهلي بعلاقاتها ونظمها وعاداتها وأعرافها، هي المؤسسة، التي يخلق فيها الإنسان العربي، ثم ينشأ متشربا نظمها وعاداتها وأعرافها، التي تبنى على دعامة أساسية؛ هي النّسب، وحينما يفتح الفرد عينيه على ما حوله يجد أنّ كل امرئ في قبيلته يتغنى بانتمائه، ويعتد بأرومته، بدءا من والده وإخوته، وانتهاء إلى رهطه وعشيرته، فجنسيته جنسية القبيلة المنحدر منها، وهويته، التي يحملها دائما في حلّه وترحاله؛ اسم قبيلته، ذلك الاسم الذي يميزه بين أفراد القبائل الأخرى، والذي يعصمه أن يتيه بينهم.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجاهلي– العصبية القَبَلية – القَبيلة.

Summary:

The tribe in the pre-islamic era, with its relations, systems, customs and traditions, is the institution in which the Arabian is born, then grows, absorbing its systems, customs and traditions, which are based on a basic pillar; which is descent, and when the individual opens his eyes around him, he finds that everyone in his tribe is praising his own belonging, and is proud of his own origin, starting from his father and brothers, down to his family and tribe, because his nationality is the nationality of the tribe from which he descended, and his identity, which he always carries in his stay and travels, is the name of his tribe, that name that distinguishes him among the other tribesmen, and prevents him from straying among them.

Key words: Pre-Islamic Poetry - Tribal Neuralism - Tribe.

استهلال:

تعدّ القبيلة من أكثر النظم الاجتماعية قدماً في التاريخ الإنساني، والعرب مجتمع قبلي من الدرجة الأولى؛ القبيلة فيه وحدة أساسية، انبنى عليها النظام الاجتماعي والسياسي في العصر الجاهلي، وهي تقوم مقام الدولة في العصر الحديث.

وقد قامت رابطة الانتماء فيها على أساس النسب؛ وهذا معناه أن أفراد القبيلة جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد، "ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة، فالرابط

الذي يربط بين أبناء القبيلة، ويجمع شملها، ويوّحد بين أفرادها؛ هو الدّم؛ أي النّسب، والنسب عندهم هو القومية ورمز المجتمع السياسي في البادية"[1].

وسآخذ في الحسبان، أنّ الذي "يجمع أفراد تلك الجماعة، فيما يسمى القبيلة، إنما هو الشعور بذلك الانتماء، وهذا الشعور يدعى العصبية"[2].

والواقع أن الذي يجمع أفراد تلك الجماعة، إلى جانب رابطة الدّم، توجد روابط أخرى؛ كالولاء والجوار والتّحالف والمصاهرة، وكلها تدعو إلى ضروب من التّعصب متفاوتة القوة[3].

1/ مفهوم العصبية:

عند الرجوع إلى كتب اللغة، لمعرفة أصل العصبية، يظهر أنها في الأصل مأخوذة من (العَصْبِ)، وهو الطّي والشّد، ومنه، "العصابة: العمامة، وكل ما يُعصب به الرأس، وقد اعتُصب بالتّاج والعمامة (...)، ومنه، عَصَبَة الرجل: بَنُوه وقَرَابته لأبيه"[4]؛ لأنه يشّد بهم أزره ويقوى.

والعَصَبية: "أن يدعو الرجل إلى نصرة عَصَبته، والتألب معهم، على من يناويهم، ظالمين كانوا أم مظلومين"[5].

والعَصَبَة "الأقارب من جهة الأب؛ لأنهم يُعصبونه، ويعتصب بهم؛ أي يحيطون به، ويشتد بهم (...) والعصبية والتَّعصب: المحاماة والمدافعة. وتعصبنا له ومعه: نصرناه"[6].

ومن خلال هذا العرض اللغوي لمعنى العصبية، يبدو لنا تركيزها على النّصرة والدفاع بين أفراد العصبة الواحدة؛ وهي تقوم على النّسب وصلة الرّحم.

نستنتج ممّا تقدم، أن العصبية – عند العرب في الجاهلية – هي الشعور بالتماسك والاندماج فيما بينهم، وبالتالي، الدّعوة إلى نصرة بعضهم البعض ظالمين كانوا أو مظلومين.

2/ الحياة الاجتماعية والسّياسية في القبيلة:

---

[1] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين: بيروت، مكتبة النهضة: بغداد، د.ط، 1978م. ج:04، ص:.314

[2] محمد الخطيب: النظام القبلي عند العرب في الجاهلية:

https://www.harthi.org/?articles

[3] للعصبية أنواع ومظاهر متعددة، وما أشرنا إليه سابقا من أنها تعصب ذوي القربى وتضامن أبناء القبيلة، إنما هو معناها في أصل اللغة، الذي يعود إلى كلمة عَصَبَة، غير أن معناها توسع، فأطلقت على أنواع أخرى من التّعصبات، بحسب الغرض، الذي نشأت لأجله، والسّبب الذي اعتمدت عليه، ومن الصعوبة بمكان حصر أنواعها، ولكن يمكن ضرب الأمثلة لها بعصبيات: النّسب، أو الجنس أو اللون أو اللغة أو المذهب أو الوطن أو الحزب أو القوم أو الجنسية...وهكذا. ويشرح ابن خلدون الفكرة السابقة أكثر: العصبية هي النُّعرة على ذوي القُربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضَيم أو تصيبهم هُلكة، وتكون العصبية بين أهل النّسب الواضح (القرابة الظاهرة)، ومن صاهرهم؛ أي تزوج من نساء منهم أو تزوجوا هم من نسائه، أو ينتسب إليهم بالولاء (دخل في حمايتهم أو أصبح رقيقا عندهم) أو الحلف (المعاهدة). ينظر: ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط1 ، 1425هـ – 2004م. ص: 256 – 257 - 258.

[1] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط6، 2008م، ج:10، ص:166- 167. (مادة عصب).

[5] المصدر نفسه، ج:10، ص: 167.

[6] المصدر نفسه، ج:10، ص: 167.

كان مجتمع الجزيرة العربية قبل الإسلام، ينقسم إلى **عرب**؛ وهم سكان المدن والمراكز الحضرية، وكانوا يسمون "أهل المدر"؛ أي أصحاب البيوت المبنية، **والأعراب**؛ وهم الذين يقطنون البادية، وكان يطلق عليهم "أهل الوبر"؛ أي الذين يعيشون في الخيام[1].

من هذا الفرق الأساس، تتضح جميع خصائص القسمين، فأهل المدر يعيشون من الزرع والنخل والماشية والضرب في الأرض للتجارة. وأما أهل الوبر يعيشون من ألبان الإبل ولحومها، منتجعين منابت الكلأ، مرتادين لمواقع القطر، فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وأمكنهم الرعي، ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه، فلا يزالون في حل وترحال[2].

وتجدر الإشارة إلى أن طبيعة الجفاف هي الغالبة على شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، فقد "كان لهذه الطبيعة أثرها في حياة النّاس، فغلبت حياة البداوة على حياة الاستقرار، وأثّرت في النظم والأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحربية، وفي سائر نواحي الحياة"[3].

فالبداوة نمط حياة بسيط لا يتغير، حالت دون قيام مجتمعات كبرى، وجعلت من الصّعب قيام حكومة، تقوم على احترام حقوق جميع أبنائها، دون النّظر إلى القبائل والرئاسات، وإنما نشأت على حياة مبنية على الحرية بين أفراد المجتمع، يعتمدون على أنفسهم، ولا يثقون بغيرهم، فهم دائما يحملون السّلاح حتى أصبح البأس خلقا والشجاعة سجية، يرجعون إليها متى دعاهم داعي واستنفرهم طارئ[4].

وقد ألمح ابن خلدون إلى هذا الأمر في قوله: "وأهل البدو لتفردهم عن التّجمع وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائما يحملون السّلاح، ويلتفتون عن كل جانب في الطرق"[5].

وفي ضوء هذا، تمثل القبيلة رأس التنظيم الاجتماعي القبلي، إذ لها زعيمها ونظامها السياسي الذي يحكمها، فضلا عن أرضها التي تعيش عليها، إذ "لكل قبيلة أرض تعيش عليها، وتنزل بها وتعتبرها ملكا لها، تنتشر بها بطونها وعشائرها، ولا تسمح لغريب النّزول بها والمرور بها إلا بموافقتها ورضاها، وقد اختص كل بطن منها بناحيته، فانفرد بها، واعتبرها أرضا خاصة بها"[6].

وتنتظم مظاهر السلطة في حياة القبيلة بتسلسل هرمي، بدءا بشيخ القبيلة وزعيمها، ممثلا لها في علاقاتها مع غيرها من القبائل والتنظيمات الاجتماعية المختلفة، ويحظى في قبيلته بالاحترام والتقدير اللذين

---

[4] ينظر: عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم: من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية)، دار العلم للملايين، بيروت، ط04، 1981م. ج: 01، ص:65.

[2] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج:04، ص:.342

[6] عبد الحميد حسين أحمد السامرائي: بعض مظاهر التّنظيم القبلي في صدر الإسلام، مجلة سرّ من رأى، كلية التربية، جامعة سامراء، العراق، نيسان 2009م. مج: 05، ع:14، ص:02.

[4] ينظر: عبد الحميد حسين أحمد السامرائي: بعض مظاهر التّنظيم القبلي في صدر الإسلام، ص:02.

[2] ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: العبر (ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: تاريخ ابن خلدون)، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، د.د، د.ط، د.ت. ص:66.

[6] جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج:04، ص:342.

يؤهلانه؛ ليكون زعيماً بما يحويه المفهوم من صلاحيات ومسؤوليات، ويساعده في تنظيم شؤون القبيلة الوجهاء، الذين يمثلون بدورهم البطون والأفخاذ والحمولات التي تتفرع عن العشيرة الواحدة.

لا غرو، بعد أن عرفنا مدى أهمية شيخ القبيلة، أن نعرف جملة الصفات التي تشترط فيه، منها:" أن يكون أشرف رجال القبيلة، وأشد عصبة وأكثر مالا، وأكبر سنا، وأعظم نفوذا"[1]، ويتصف بصفات خُلقية: كالشجاعة والحكمة والصبر والكرم وسعة النّفوذ والنجدة والتواضع. ويتولّى واجبات؛ أهمّها: قيادة الجيش، وأمر المفاوضات مع القبائل الأخرى، وفضّ النّزاعات، والحُكم في الخلافات، وإعانة الضعفاء...الخ.

ومن المهم أن يذكر الدّارس، هنا، أنّ مجتمع القبيلة حقق تلاحما كبيرا بين أفراده؛ لأن القبيلة تمثلهم جميعا، فصارت أفعالها مؤثرة ومعبرة عنهم، ولذلك "كان الفرد في القبيلة يدافع عن القبيلة، وإن القبيلة هي الأخرى تدافع عن الفرد"[2]، ونتج عن هذا "نوع من اندماج الفرد داخل المجموعة، وإن هذا الفرد إذا ما أحرز بطولات، فهي تنسب لقبيلته أولا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن القبيلة قد تحارب بأكملها، وتحرز بطولات دفاعا عن هذا الفرد أصلا؛ أي أن التّساوي الفردي والاندماج بين الأفراد داخل القبيلة، ليس مجرد تكاتف، قدر ما هو تبادل عضوي بين الفرد والمجموعة، وإنّ البطولة الشخصية النّابعة من القبيلة ليست فردية، بقدر ما هي جماعية فردية متبادلة"[3].

ويمكن التمييز بين الطبقات الاجتماعية في القبيلة، وهي على النحو الآتي:

1. الصرحاء.
2. العبيد.
3. الموالي.

فالصرحاء؛ هم أبناؤها، ذوو الدّم النّقي، الذي لا تشوبه شائبة، الذين ينتمون جميعا إلى أب واحد، والذين تتمثل فيهم العصبية القبلية بأقوى معانيها، ومنهم تتكون الطبقة الارستقراطية في القبيلة، وفيهم رياستها، وبيوت الشّرف فيها[4].

وأما طبقة العبيد، "فقد كانت تتألف من عنصرين: عنصر عربي؛ وهم أولئك الأسرى، الذين كانوا يقعون في أيدي القبيلة في حروبها مع القبائل الأخرى. وعنصر غير عربي؛ وهم أولئك الرقيق، الذين كانوا يجلبون من البلاد المجاورة للجزيرة العربية".[5]

أما الطبقة الثالثة في القبيلة؛ وهي طبقة الموالي، فقد كانت تتألف من العتقاء، ومن العرب الأحرار، الذين لجئوا إلى القبيلة من قبائل أخرى، وعاشوا في حمايتها، أو حماية رئيسها، أو بعض ذوي النفوذ فيها.[1]

---

[1] سالم السيد عبد العزيز: تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية، 1973م. ص:20.

[2] كريم الوائلي: الشعر الجاهلي (قضاياه وظواهره الفنية)، د.د، د.د، د.ط، د، د.ت. ص:.188

[1] صلاح عبد الحافظ: الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، دار المعارف، د.د، د.ط، 1998م. ج:02، ص:96 - 97.

[2] ينظر: ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: العبر (ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: تاريخ ابن خلدون)، ص: 70 – 71.

[3] يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط3 ، د.ت. ص: 105.

3/ العصبية القبلية في نماذج من الشعر الجاهلي:

إن القبيلة في العصر الجاهلي بعلاقاتها ونظمها وعاداتها وأعرافها، هي المؤسسة، التي يخلق فيها الإنسان العربي، ثم ينشأ متشربا نظمها وعاداتها وأعرافها، "التي تبنى على دعامة أساسية؛ هي النّسب، وحينما يفتح الفرد عينيه على ما حوله يجد أنّ كل امرئ في قبيلته يتغنى بانتمائه، ويعتد بأرومته[2]، بدءا من والده وإخوته، وانتهاء إلى رهطه[3] وعشيرته[4]، فجنسيته جنسية القبيلة المنحدر منها، وهويته، التي يحملها دائما في حلّه وترحاله؛ اسم قبيلته، ذلك الاسم الذي يميزه بين أفراد القبائل الأخرى، والذي يعصمه أن يتيه بينهم"[5].

انطلاقا من هذا الفهم، شكّل البناء الاجتماعي للقبيلة في العصر الجاهلي مدخلا هاما في كشف مغزى الشعر الجاهلي، الذي أدى دورا في إبراز شخصية الإنسان العربي المتعصب لقبيلته، باعتبارها الوطن الراحل معه دائما؛ لأنه "يعي ويدرك أن وجوده، مرتبط بوجودها، وفناءه مقرون بفنائها"[6].

تتحقق، إذن، لحمة بين أفراد القبيلة، دون أن ننسى أن الشّاعر عضو فيها، حيث إنها تجعله "يحس أنه عضو في جسم القبيلة، يصيبه ما يصيب القبيلة، فيفرح لفرحها، ويحزن لحزنها، ويظعن لظعنها، وينزل لنزولها، وإذا أُغير عليها يهب لنجدتها، ذائدا عن حياضها[7]، وشعاره صيحات قوية تعلن انتسابه إليها، وإذا اعتدى على فرد منها انطلق إلى الثأر من القبيلة المعتدية، وفضلا عن ذلك كله، فإنّه ينقاد لسيدها، ويخضع لما تمليه عليه نظمها وأعرافها"[8].

وبما أنّ العصبية القبلية كانت أساسًا للنظام الاجتماعي في العصر الجاهلي، فقد تأصَّلت في نفوس الشعراء، وأورثتهم الخضوع التامّ لشريعة القبيلة. وتجلى هذا في نواحي كثيرة من حياتهم، ومن أهم مظاهرها، نذكر:

3-1/ الفخر بالأحساب[9]، والطعن في الأنساب:

كان التّفاخر والتّعاظم بين أهل الجاهلية سمة اجتماعية سائدة؛ إذ كانت المفاخرة بمآثر الآباء والأجداد، وبالسيادة والرّيادة، أمرًا شائعًا.[10]

---

[1] المرجع نفسه، ص:106. (بتصرف).

[5] الأَرُومة: الأصل.

[1] الرهط: رهطُ الرجل: قومه وقبيلته، والرّهط: عدد يجمع من ثلاثة إلى عشرة، وبعض يقول من سبعة إلى عشرة. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج:06، ص:244. (مادة رهط).

[4] العشيرة: عشيرة الرجل: بنو أبيه الأدنون، وقيل: هم القبيلة. المصدر نفسه، ج:10، ص:158.(مادة عشر).

[5] عبد الغني زيتوني: الوجدان الجماعي في الشعر الجاهلي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن، 1990م. ع:39، ص:189.

[6] المرجع نفسه، ص: 189.

[5] حياضها: حاض الماء وغيره : حاطه وجمعه، والحوض: مجتمع معروف، والجمع أحواض وحياض. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج:04، ص:271. (مادة حوض).

[8] عبد الغني زيتوني: الوجدان الجماعي في الشعر الجاهلي، ص: 189- 180.

[9] الحسب هنا: بالمفهوم الجاهلي؛ الشرف الثابت في الآباء.

[8] ينظر: مجدي رياض: الإسلام والعروبة، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، مصر، 1905م. ص:98.

فقد اهتم العرب كثيراً بالأنساب واعتبروها علماً واسعاً من العلوم التي تشغل تفكيرهم كثيراً، والتي تستحق منهم المصنفات الضخمة[1]، وهذا يدل دلالة واضحة، على أن العرب ظلوا عبر تاريخهم، وفي كل العصور، يعتزون بالحسب والنسب، وهذا أمر لا تهاون ولا تفريط فيه، يرقى إلى مرتبة القداسة، فلا يجرؤ أحد على المساس به، أو التعرض له بأية وسيلة، وإلا فالحرب والعداوة التي قد تمتد أجيالا.

ومن خلال هذه الأهمية، التي تؤديها الأنساب، نستنتج أنها توفّر الحماية والوقاية للإنسان، قبل أن تتولد الحكومات الكبيرة التي جاءت فيما بعد، فرعت الأمن وبسطت سلطانها وخففت من غلواء النسب والانتساب[2].

فالأنساب، على هذه الشّاكلة ظاهرة إيجابية، ومفهوم جيد في الحياة القبلية العربية؛ لأنها تربط شمل القبيلة، وتجمع شتاتها، وتحميها من كل معتد أو طامع، لكنها تدفع إلى التّفاخر والخيلاء، والزّهو والغطرسة، وبالتالي، تصبح ظاهرةً سلبيةً منبوذةً، يجب كشف ضررها، وبيان المناحي السلبية فيها[3].

ولقد سجل – لنا - الشّعر منذ العصر الجاهلي، وما تلاه من عصور، كثير القصائد التي سجلت ما كان عليه هذا الاعتزاز، وما وصل إليه الفخر بالحسب والنسب عند العرب.

وإن أغراض الشعر العربي، وأهمها: الفخر والمديح ونقيضه الهجاء والرثاء، كلها تدور في حلقة الحسب والنسب، وهو ما يعكس جلياً ما كانت عليه الحياة الاجتماعية آنذاك.

ومن أهم مظاهر التزام الشاعر بالقبيلة؛ حرصه الشّديد على النسب، والاعتزاز به، فقد كان أقوى صلة تربطه بقومه، وتشدّ أواصر العصبية معهم، فلا غرابة بعد ذلك أن يطمح إلى أن يجعل نسبه في الذروة من الشرف والرفعة، وأن يجعل الأجداد والآباء - الذين ينتمي إليهم - في مقام السادة العظماء[4]، ونجد صدى ذلك في قول معاوية بن مالك[5]:

إِنّي امْرُؤٌ مِنْ عُصْبَةٍ مَشْهُورَةٍ ... حَشَدٍ لَهُمْ مَجْدٌ أَشَمُّ تَلِيدُ
أَلْفَوْا أَبَاهُمْ سَيِّدًا وَأَعَانَهُمْ ... كَرَمٌ وَأَعْمَامٌ لَهُمْ وَجُدُودُ
إِذْ كُلُّ حَيٍّ نَابِتٌ بِأَرُومَةٍ ... نَبْتَ العِضَاهِ فَمَاجِدٌ وَكَسِيدُ[6]

---

[9] ينظر مثلاً: كتاب الأنساب: لأبي سعيد التميمي المسمعاني، وكتاب جمهرة النسب لصاحبه: هشام بن محمد بن السائب الكلبي أبو المنذر، وكتاب طبقات النسابين لأبي بكر بن زيد...وغيرها من الكتب التراثية.

[1] ينظر: علي جواد: المفصل في تاريخ العرب، قبل الإسلام، ج:04، ص:357.

[3] ينظر: علي الشعيبي: الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام، د.دا، د.د، د.ط، 2002م. ص:.37

[3] ينظر: عبد الغني زيتوني: الوجدان الجماعي في الشعر الجاهلي، ص:180.

[4] معاوية بن مالك: هو ابن مالك بن جعفر بن كلاب، شاعر جاهلي، لقبه: معوِّد الحكماء. ينظر: ابن حجر العسقلاني: نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق: عبد العزيز بن محمد بن صالح السديدي، مكتبة الرشد، الرياض، ط01، 1409هـ - 1989م. ج:02، ص:187.

[5] المفضل الضبّي: المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط 06، د.ت. ص:.255

فالشاعر "يؤكّد انتماءه إلى قومه، الذين يشكلون عُصْبة قوية ملتحمة الأطراف، تشمخ متطاولة بأمجادها نحو السماء، قد رعاها الآباء، والأعمام، والجدود، حتى جعلوها كشجرة وارفة الظلال تنضح عبيرًا فوّاحًا من المجد والسيادة"[1].

وعلى هذا النحو، يَنْزع سلامةُ بن جندل السَّعدي[2] إلى الفخر بانتسابه إلى قومه، الذين يجمعون إلى جانب شرف الأصل؛ شجاعةً في القتال، ورأيًا صائبًا في حل قضايا القبيلة، وإحلال الوفاق والوئام بين أفرادها[3]؛ فيقول[4]:

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ عُصْبَةٍ سَعْدِيَّةٍ ذَرْبَى[5] الأَسِنَّةِ كُلَّ يَوْمِ تَلاَقِي
لاَ يَنْظُرُونَ إِذَا الكَتِيبَةُ أَحْجَمَتْ نَظَرَ الْجِمَالِ كُرِبْنَ بِالأَوْسَاقِ[6]
يَكْفُونَ غَائِبَهُمْ وَيُقْضَى أَمْرُهُمْ فِي غَيْرِ نَقْصٍ مِنْهُمُ وَشِقَاقِ
وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ مَنْ يَبُلُّ نُحُورَهَا بِدَمٍ كَمَاءِ الْعَنْدَمِ[7] الْمُهْرَاقِ

تجنح هذه الأبيات إلى اعتزاز الإنسان العربي بنسبه، الذي يُغالي فيه أحيانًا، وبالتالي، سيدفعه إلى التّطرف الفاخر، والتعاظم، فيصبح هذا التفاخر من أهم ركائزه، فلا يرى نسبًا يضاهي نسب قبيلته نُبْلاً وشرفًا، ولا يرضى أن يتطاول عليه أحد من القبائل الأخرى، فيدعي لنفسه نسبًا أشرف من نسبه، أو حَسَبًا أشرف أرومة منه.

2-3- الأخذ بالثأر:

عندما نتكلم عن الثأر فنحن نتحدث عن مشكلة ذات جذور عميقة، ولها تاريخ طويل، حينما كان الثأر بمفهومه الجاهلي لا يتقيد بحدود قتل القاتل، وإنّما يتجاوزه إلى قتل الجماعة في مقابل الواحد، تكبراً وافتخاراً، فقد كان العربي الأول إن اندحر "في المعركة أو قتل أحد من أفراد عشيرته أو ذويه، كان يثير في نفسه مشاعر الحقد والكراهية والانتقام، فهو يحاول الثأر من الغالب أو القاتل متى تهيأت له الظروف، ومتى وجد الفرصة سانحة للانقضاض عليه، إنقاذا لكرامته"[8].

---

[1] خالد بن عبد الرحمن بن علي الجريسي: العصبية القبلية من المنظور الإسلامي (الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب)، مؤسسة الجريسي، الرياض، 1427هـ - 2006م. ص:35.

[2] سلامة بن جندل السّعدي: شاعر جاهلي من بني تميم، من الفرسان، ومن وُصَّاف الخيل. ينظر: خير الدين الزركلي: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، بيروت، ط:15، 2002م. ج:03، ص:.106

[3] ينظر: خالد بن عبد الرحمن بن علي الجريسي: العصبية القبلية من المنظور الإسلامي (الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب)، ص:35.

[4] سلامة بن جندل: الديوان، صنعة: محمد بن الحسن الأحول، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:02، 1407هـ – 1987م. ص: 151- 152.

[5] ذربى: الذّرب: الحادّ من كل الشيء. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج: 06، ص: 23. (مادة ذرب).

[6] الأوساق: الوِسْقُ: مِكيلة معلومة، وقيل: هو حِمْل البعير، والأصل في الوَسق الحَمْل. فالأوساق: الأحمال الثقيلة، والمقصود هنا: تجشُّم قومِه تحمّلَ مشاقّ الحرب وويلاتِها دون سائر الأقوام. المصدر نفسه، ج: 06، ص: 23. (مادة ذرب).

[7] العَندَم: دم الأخوين، وقيل: شجر أحمر. المصدر نفسه، ج:10 ، ص:299. (مادة عندم).

[1] نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة، بغداد، ط:01، 1384هـ- 1964م. ص:113.

فقد كان من خُلُق القوم في الجاهلية؛ الحرص على الأخذ بالثأر على أي حال، واستثارة الهمم للقتال. ليتضح، بذلك اعتزاز العربي بعصبيته، وصون كرامته، فالحفاظ على هذه الكرامة، إنما هو حفاظ على حيَاته نفسها، وكيانه في مجتمع ينهار فيه كل شيء إذا لم يَذُد فيه عن حياضه، ويركب للشر كل مركب[1].

ويهون على العربي أمر الحياة، ويستهين بالموت من أجل ثأره، فإذا وجب الثأر دفاعًا عن الحرمات وحفظًا للكرامة، فإن المَنِيّة عند العربي خير من إعطاء الدَّنِيّة، فالأخذ بالثأر، معنًى من المعاني التي تعبر عن روح العصبية، وهذا الخلق - على ما فيه من شر - يتصل بكرامة العربي التي تدفعه إلى أن يقتص بنفسه من المعتدين، بيد أنه تنقصه الشريعة التي يدين بها الجميع، ويمتثلون لنصوصها، ويخضعون لوجوه تطبيقها، إلى جانب هذا كان معنى الثأر أيضًا يستتبع ضروبًا من الشجاعة، والرجولة، والاستبسال، جعلت حصونهم ظهور خيلهم، ومِهادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجُنَّتهم السيوف، وعُدَّتهم الصبر[2].

وتتشعب معاني الأخذ بالثّأر، وما يتصل به من فكرة دفع الديات، وما يرتبط به أيضًا من قيم وعادات خاصة برفضها أو بقبولها والرضا بها؛ حسمًا للقتال وإقرارًا للسّلام، ثم علاقة ذلك كله بمفهموم الكرامة عند العربي، ومعنى الشّرف في معجم أخلاقه[3].

فهذا قيس بن الخطيم يصور الثأر كالنار المستعرة في قلوب عرب الجاهلية، والعربي لا يهدأ له بال إذا لم يأخذ به، وما تتبع قيس بن خطيم لقاتلي أبيه، وجده، والانتقام منهما، إلا دليل على إدراك الثأر مهما طال أمده:[4]

ثأرتُ عَدياً والخطيمَ ولم أضِعْ وصيَّة أشياخٍ جُعلت إزاءها

(...)

طعنتُ ابنَ عبدِ القيس طعنةَ ثائرٍ لها نَفذُ لولا الشُّعاع أضاءها

مَلَكتُ[5] بها كفي فأنهَرتُ[6] فَتْقهَا يرى قائمُ من دونها ما وراءها

وشايحني[7] فيها ابنُ عمرو بن عامرٍ زهير فأدى نعمةً وأفاءها

والظّاهر أن اتخاذ بعض الظواهر خلال فترة الثأر كهجر الغواني، والامتناع عن شرب الخمر، وعدم نزع السلاح، لعهد قاطع على الرغبة في أخذه، وهذا ما فعله بالضبط "المهلهل أخو كليب، الذي لم يهدأ له قرار

---

[2] ينظر: سعيد حسين منصور: القيم الخلقية في الخطابة العربية (من الجاهلية حتى بداية القرن الثالث الهجري)، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، د.ط، د.ت. ص:24.

[3] ينظر: خالد بن عبد الرحمن بن علي الجريسي: العصبية القبلية من المنظور الإسلامي (الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب)، ص:38- 39.

[4] ينظر: سعيد حسين منصور: القيم الخلقية في الخطابة العربية (من الجاهلية حتى بداية القرن الثالث الهجري)، ص: من 24 إلى 26.

[5] أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي: عنوان النّفاسة في شرح الحماسة، تحقيق: محمد جمالي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، 1971م. ص:16- 17- 18- 19- 20.

[1] ملكت: شددت وقوّيت. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج: 14، ص:367.

[2] أنهر: يقال: طعنه طعنة أنهر فتقها؛ أي وسعه. وأنهرت الدم؛ أي أسلته. المصدر نفسه، ج: 14، ص:367. (مادة نهر).

[3] شايحني: الشِّيح والشائح والمُشيح: الجاد والحذر، وشايح الرجل: جدّ في الأمر. المصدر نفسه، ج:07، ص:172. (مادة شيح).

ولم تخفت له صيحة الثأر في نفسه، ظل ينظم القصائد المطولة في رثاء أخيه، ويستجمع قوى أصحابه وعشيرته ومناصريه للأخذ بثأره مهما تعاظم الخطب"[1]، يقول:

أرى طولَ الحياة ِوّقدْ تولى كَمَا قَدْ يُسْلَبُ الشَّيْءُ المُعَار
كَأَنِّي إذْ نَعَى النَّاعِي كُلَيْبا تطايرَ بينَ جنبيَّ الشرارُ
فدرتُ وّقدْ عشيَ بصري عليهِ كما دارتْ بشاربها العقارُ
سألتُ الحيَّ أينَ دفنتموهُ فَقَالُوا لِي بِسَفْحِ الْحَيِّ دَارُ
فسرتُ إليهِ منْ بلدي حثيثاً وَطَارَ النَّوْمُ وَامْتَنَعَ القَرَارُ

(...)

أقولُ لتغلبٍ وَالعزُّ فيها أثيروها لذلكمُ انتصارُ
تتابعَ إخوتي وَمضوا لأمرٍ عليهِ تتابعَ القومُ الحسارُ[2]
خذِ العهدَ الأكيدَ عليَّ عُمري بتركي كلَّ ما حوتِ الديارُ
وَهَجْرِي الْغَانِيَاتِ وَشُرْبَ كَأْسٍ وَلُبْسِي جُبَّة ٍلاَ تُسْتَعَارُ
وَلستُ بخالعٍ درعي وَسيفي إلى أنْ يخلعَ الليلَ النهارُ
وإلاَّ أَنْ تَبِيدَ سَرَاة ُبَكْرٍ فَلاَ يَبْقَى لَهَا أَبَداً أَثَارُ[3]

3-3- الحروب:

عاشت القبائل العربية قديما تحت حكم القوة، فالقبيلة القويّة تغزو القبائل الأقل قوةً، وتنهب ممتلكاتها وتشرّد أفرادها، كما أنّ القبيلة القوية تستحوذ على مساحات واسعة من المراعي لمواشيها كما تتحكم بمصادر المياه.

وجلّ هذه الحروب كانت في الجاهلية لسيادة العصبية القبلية عصرئذ وعدم وجود دولة توحّد قبائل العرب.

وبالتّالي، تقتضي أن تنصر القبيلةُ أيَّ فرد منها على من سواه، ظالماً كان أو مظلوماً، من دون أن يسألوا عن الحق إلى أي جانبٍ هو، وحين ينادي أحد قومه، ومن ذلك قول قُرَيْط بن أُنَيْف العنبري[4]:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدى نَاجِذَيْهِ[5] لَهُمْ طَارُوا إِلَيْه زَرَافَاتٍ[6] وَوُحْدَانا
لاَ يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ عَلَى ما قَالَ بُرْهَانَا[1]

---

[1] نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر الجاهلي، ص:113.

[2] الحسّار: الحاسر خلاف الدّارع، والحاسر: الذي لا بيضة على رأسه، ويقال للرجالة في الحرب: الحُسَّرُ، وذلك أنهم يحسرون عن أيديهم وأرجلهم، وقيل: سُموا حُسَّرا؛ لأنه لا دروع لهم ولا بَيْضَ. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج:04، ص:116. (مادة حسر).

[6] المهلهل بن ربيعة: الديوان، شرح وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية، د.دا، د.د، د.ط، د.ت. ص:33- 34.

[4] قُرَيْط بن أُنَيْف العنبري شاعر جاهلي من بنو العنبر من تميم.

[5] ناجذيه: النواجذ: الأضراس.

[3] زرافات: الزّرافة بالفتح: الجماعة من الناس، والزّرافات: الجماعات. ينظر: ابن منظور: لسان العرب، ج:07، ص:27. (مادة زرف).

ويمضي العربي بهذه الرجولة الحقّة، التي تتمثل في الشجاعة والفروسية والإقدام، وخوض الحروب، وكسب المغانم وتحمل المكاره، وكل ما يتعلق بهذه الخصال التي تصقل مواهب الرجل، وتجعله أكثر شجاعة وإقداما.

لقد تمثلت هذه الخصال بجلاء في الشعر الجاهلي، وفي أحاديث الشعراء، "فعمرو بن كلثوم الشاعر المعروف، يبدو في معلقته مفتخرا بنفسه وقومه، متباهيا بشجاعتهم وأيامهم، التي امتلأت بالقتل والدماء (...) ثم ينتقل إلى ذكر أبائه وأجداده، الذين زخر التاريخ ببسالتهم وبلائهم (...) ينتصرون في كل حرب"[2]، يقول:

أَبَا هِندٍ فَلاَ تَعجَلْ عَلَينَا وَأَنظِرنَا نُخَبِّرْكَ اليَقِينَا
بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضاً وَنُصدِرُهُنَّ حُمراً قَد رُوِينَا
وَأَيَّامٍ لَنَا عزٍّ طِوَال عَصَيْنا المَلْكَ فيهَا أَنْ نَدِينا
وَسَيِّدِ مَعْشَرٍ قَدْ تَوّجُوه بِتَاجِ المُلْكَ يَحمِي المحجرينَا
تَركْنَا الخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ مُقلِّدَةً أَعِنّتُهَا صُفُونَا

(...)

مَتَى نَنْقُلْ إِلى قَوْمٍ رَحَانَا يَكُونُ فِي اللِقَاءِ لَهَا طَحِينَا
يَكُونُ ثَفَالُهَا شَرقِيَّ نَجْدٍ وَلُهْوَتُهَا قُضَاعَةَ أَجْمَعِنَا

(...)

وَرِثْنَا المَجْدَ قَدْ عَلِمْتَ معدّ نُطاعِنُ دُونَه حَتَى يَبِينَا[3]

ما ذكرناه آنفًا هو أبرز مظاهر العصبية القبلية في العصر الجاهلي، وغيرها من مظاهر أخرى.

4/ حكم الإسلام في العصبية الجاهلية:

بات من المسلّم به أن الشريعة الإسلامية لم تأت لتهدم كل ما كان عليه الناس قبلها، لتؤسس على أنقاضه بناءً جديدًا لاصلة له بفطرة البشر، وما تقتضيه سنن الاجتماع، وإنما جاءت لتُحِقّ الحق وتبطل الباطل، ومما لا شك فيه أيضًا أن عادات العرب وتقاليدهم وأخلاقهم ومعاملاتهم في العصر الجاهلي- بمختلف جوانب الحياة - لم تكن سيئة كلها، بل فيها ما كان ممدوحًا فأقره الإسلام؛ انطلاقًا من قوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لأَتمِّمَ مكارم الأَخْلاَقِ"[4]، ومنها ما كان مذمومًا فأبطله الإسلام، أو صحّح فهمه، وطريق إعماله، فأصبح بعدها أمرًا محمودًا.[5]

---

[4] أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، دار الكتب العلمية، د.د، ط01، 1404ه - 1983م. ج:01، ص:71.

[2] نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر الجاهلي، ص:239.

[6] عمرو بن كلثوم: الديوان، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:01، 1411ه - 1991م. ص:71- 72.

[1] محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (السلسلة الصحيحة)، مكتبة المعارف، د.دا، د.د، د.ط، د.ت. ج:01، ص:45.

[2] ينظر: خالد بن عبد الرحمن بن علي الجريسي: العصبية القبلية من المنظور الإسلامي (الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب)، ص:43.

وبما أن العصبية الجاهلية كانت "بمثابة الأساس للأعراف القبلية السائدة آنذاك، وكانت في الوقت نفسه من أسباب الفرقة، والتقاتل بين الناس؛ لذا فقد ركز الرسول صلى الله عليه وسلم عليها، وحاربها بكل قوة، ودون هوادة، وحذر منها، وسد منافذها؛ لأنه لا بقاء للدين العالمي، ولا بقاء للأمة الواحدة مع هذه العصبيات، ومصادر الشريعة الإسلامية زاخرة بإنكارها، وتشنيعها، وما أكثر النصوص في ذلك"[1].

على سبيل الختام:

وهكذا، نصل إلى أن القبيلة تعدّ من أكثر النظم الاجتماعية قدماً في التاريخ الإنساني، والعرب مجتمع قبلي من الدرجة الأولى؛ القبيلة فيه وحدة أساسية، انبنى عليها النظام الاجتماعي والسياسي في العصر الجاهلي، وهي تقوم مقام الدولة في العصر الحديث.

ببليوغرافيا المصادر والمراجع المعتمدة:

1- ابن حجر العسقلاني: نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق: عبد العزيز بن محمد بن صالح السديدي، مكتبة الرشد، الرياض، ط01، 1409هـ - 1989م. ج:02.

2 -أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري : لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط6، 2008م، ج:10.

3 -أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، دار الكتب العلمية، د.د، ط01، 1404هـ - 1983م. ج:01.

4-جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين: بيروت، مكتبة النهضة: بغداد، د.ط، 1978م. ج:.04

5- خالد بن عبد الرحمن بن علي الجريسي: العصبية القبلية من المنظور الإسلامي (الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب)، مؤسسة الجريسي، الرياض، 1427هـ - 2006م.

6- خير الدين الزركلي: الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين)، دار العلم للملايين، بيروت، ط:15، 2002م. ج:.03

7- سالم السيد عبد العزيز: تاريخ الدولة العربية، الإسكندرية، 1973م.

8- سعيد حسين منصور: القيم الخلقية في الخطابة العربية (من الجاهلية حتى بداية القرن الثالث الهجري)، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، د.ط، د.ت.

9- سلامة بن جندل: الديوان، صنعة: محمد بن الحسن الأحول، تحقيق: فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:02، 1407هـ – 1987م.

10- صلاح عبد الحافظ: الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، دار المعارف، د.د،

[1] المرجع نفسه، ص:43.

11- عبد الحميد حسين أحمد السامرائي: بعض مظاهر التّنظيم القبلي في صدر الإسلام، مجلة سرّ من رأى، كلية التربية، جامعة سامراء، العراق، نيسان 2009م. مج: 05، ع:.14

12- عبد الغني زيتوني: الوجدان الجماعي في الشعر الجاهلي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، الأردن، 1990م. ع:.39

13- علي الشعيبي: الإيجابية والسلبية في الشعر العربي بين الجاهلية والإسلام، د.دا، د.د، د.ط، 2002م.

14- عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم: من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية)، دار العلم للملايين، بيروت، ط04، 1981م. ج: .01

15- عمرو بن كلثوم: الديوان، تحقيق: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:01، 1411هـ - 1991م.

16- قاسم بن زاكور الفاسي: عنوان النّفاسة في شرح الحماسة، تحقيق: محمد جمالي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، 1971م.

17- كريم الوائلي: الشعر الجاهلي (قضاياه وظواهره الفنية)، د.د، د.د، د.ط، د، د.ت.

18- مجدي رياض: الإسلام والعروبة، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، مصر، 1905م.

19- محمد ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (السلسلة الصحيحة)، مكتبة المعارف، د.دا، د.د، د.ط، د.ت. ج:01.

20- المفضل الضبّي: المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط 06، د.ت.

21- المهلهل بن ربيعة: الديوان، شرح وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية، د.دا، د.د، د.ط، د.ت.

22- نوري حمودي القيسي: الفروسية في الشعر الجاهلي، مكتبة النهضة، بغداد، ط:01، 1384هـ- 1964م.

23- ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: العبر (ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر: تاريخ ابن خلدون)، اعتنى به: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، د.د، د.ط، د.ت.

24- ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، ط1، 1425هـ – 2004م.

25- يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، ط3 ، د.ت.

26- محمد الخطيب: النظام القبلي عند العرب في الجاهلية:

https://www.harthi.org/?articles